

الترجمة الكاملة

9

مغامرات

تأليف : آرثر كونان دويل

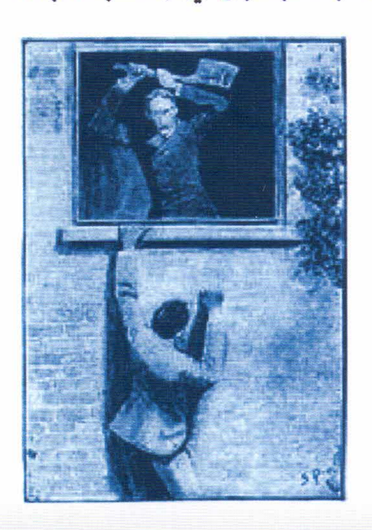
شارلوك هولمز

إبهام المهندس

The Engineer's Thumb

نشرت للمرة الأولى في مجلة ستراند آذار 1892

مغامرات



ترجمة : سليمان حسون

أجيال الغد

لجيل عربي مثقف واع





ذكريات شارلوك هولمز

1- ذو الغرة الفضية
2- لغز الطرد البريدي
3- الوجه الأصفر
4- لغز موظف البورصة
5- لغز سفينة غلوريا سكوت
6- طقس موسغريف
7- لغز بلدة ريغيت
8- لغز الرجل الأحدب
9- المريض المقيم
10- المترجم اليوناني
11- وثائق المعاهدة البحرية
12- المشكلة الأخيرة

مغامرات شارلوك هولمز

1- فضيحة في بوهيميا
2- عصبة ذوي الشعر الأحمر
3- الهوية الغامضة
4- لغز وادي بوسكومب
5- بذور البرتقال الخمس
6- الرجل ذو الشفة المقلوبة
7- مغامرة العقيق الأزرق
8- مغامرة الشريط المرقط
9- مغامرة إبهام المهندس
10- مغامرة النبيل الأعزب
11- مغامرة تاج الزمرد
12- مغامرة منزل الأشجار النحاسية


ISBN 978-9933-14-822-5

أجيال الغد
سورية - دمشق - هاتف: 2256733 / 00963 11 2262422
ص.ب: 31453 - agyalalgadsyr@gmail.com

الطبعة الثانية
2015م - 1436هـ

مغامرات شارلوك هولمز

The Engineer's Thumb

إبهام المهندس

تأليف: آرثر كونان دويل
ترجمة: سليمان حسون

أجيال الغد
سورية - دمشق - هاتف: 2256733 / 2262422 11 00963
ص.ب: 31453 - agyalalgadsyr@gmail.com
أشرف على التنفيذ الفني والطباعي دار الحافظ
daralhafez.net

9

مغامرات شارلوك هولمز

The Engineer’s Thumb

إبهام المهندس

تأليف: آرثر كونان دويل

نشرت للمرة الأولى في مجلة ستراند
آذار 1892

ترجمة: سليمان حسون

مراجعة: لينا حجازي

مُقدِّمةٌ

تفوَّقت شخصية شارلوك هولمز على شهرة مخترعها سير آرثر كونان دويل وتجاوزت شهرتها ليس فقط لندن والجزيرة البريطانية، بل بلغت أقاصي العالم مع ترجمة أعمال ومغامرات هولمز إلى كل لغات العالم تقريباً. فلم يعد أحد من الشَّبان أو الشَّابات إلا ويعرف من هو ذلك المحقق اللامع الذّكاء الذي يعير انتباهاً إلى أدق التَّفاصيل عندما يضع قضية ما تحت مجهر فحصه الدَّقيق. ومن منا لا يذكر براعة هولمز في فك طلاسم أعقد الألغاز وأشدها غموضاً بطريقة تحليله المنطقية الشَّهيرة. تعتبر شخصية هولمز غير الحقيقية طبعاً واحدةً من أكثر الشَّخصيات تأثيراً في القراء خلال القرن العشرين نظراً لمخاطبتها عناصر أساسية في شخصية أي إنسان لتحفيز قدراته العقلية، وتفكيره من أجل الوصول إلى حل كل لغز

اشتركت فيه. وكأنَّها (أي شخصية هولمز) كانت تحث القارئ دوماً وتحفزه للوصول إلى الحقيقة، أو حل اللّغز المطروح بشكلٍ يجعل القارئ يضطر لاستخدام كل ملكاته الفكريَّة والعقلية للوصول مع هولمز وواطسون إلى حقيقة الأمر، أو حتَّى أن يسبقهما في التَّوصل للحقيقة. الطَّريف في شخصية هولمز أنَّها وعلى الرغم من أنَّها تقدِّم لنا شخصاً من لندن في نهاية القرن التَّاسع عشر إلا أنَّها من خلال طريقة تعاملها مع ما حولها ومن حولها تبدو شخصية أكثر معاصرة وكأنَّ كونان دويل نجح بتحويلها إلى شخصية خارج إطار زمان محدد.

الأهم من شخصية هولمز التي تتسيَّد كل قصص كونان دويل هي شخصيَّة كاتبها التي تشي بشخص عاش حياته كتجربةٍ عظيمةٍ تمكَّن إلى أقصى حد في تصويرها من خلال شخصية هولمز، أحياناً وشخصية د. واطسون بصورةٍ أكبر وأكثر جلاء. كما تمكّن الفنان سيدني باجيت من ابتداع صورة نمطية محدَّدة ومشوِّقة للسيد هولمز في أذهاننا، مع مواكبة قصص كونان دويل برسومات جميلة جعلت صورة هولمز المرتدي لقبعته المميزة. وغليونه الجميل، صورة لا تمحى من أذهاننا.

آرثر كونان دويل
مؤلف شخصيَّة «شارلوك هولمز»

ولد الطبيب والروائي البريطاني السير آرثر كونان دويل في أدنبرة باسكتلندا سنة 1859، واشتهرت الشَّخصية التي ابتدعها «شارلوك هولمز» لرجل التَّحري الذَّكي القادر على فك ألغاز الجرائم، معتمداً على امكاناته الذِّهنية وقوة الملاحظة، واتباع طريقة الملاحظة والتَّحليل والاستنتاج بالاعتماد على العلم والمنطق، هذه الشَّخصية التي أصبحت أكثر شهرة من مبتدعها.

وقد مُثلت العديد من رواياته وقصصه، وتحوَّلت إلى أفلام سينمائية وأفلام كارتونية. وقد هجر السير آرثر دويل مهنة الطّب بعد أن مارسها ثماني سنوات، واتَّجه إلى الأدب، واستطاع أن يبدع فيه. بدأ حياته الأدبية سنة 1887 بكتابة القصص القصيرة للمجلات بهدف زيادة دخله. يقول النَّاقد كريستوفر مورلي عن شارلوك هولمز: لم يحدث أبداً أن نالت شخصيَّة روائيَّة هذا الحظ من القدرة على امتاع القرَّاء والالتصاق بهم بمثل ما نالت شخصية شارلوك هولمز. فالسير آرثر دويل بعد أن مارس مهنة الطّب في

عيادته التي لم يكن يزورها إلا النُّزر اليسير من المرضى، كان يجد أوقاتاً كبيرة من الفراغ، شغلها بكتابة القصص القصيرة، والتي لم تنل حظاً من النَّجاح في البداية.

إلا أنَّه وبعد نشر روايته الأولى عن شارلوك هولمز سنة 1887 أخذ نجمه في الصّعود. وبلغت مجموع القصص والرِّوايات التي كتبها السير آرثر دويل وظهرت فيها شخصية شارلوك هولمز حوالي 60 عملاً، جُلَّها من القصص القصيرة، حتَّى أصبح السير آرثر دويل من أكثر كتَّاب القصَّة القصيرة دخلاً في عصره.

ونظراً لجهوده في دعم الحكومة البريطانية في حرب البوير «1899 – 1902» رقِّيَ إلى رتبة فارس سنة 1902.

شارلوك هولمز

شخصيَّة خياليَّة لمحقِّق من أواخر القرن التَّاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ابتكرها الكاتب والطَّبيب الاسكتلندي سير آرثر كونان دويل، ظهرت الشَّخصية لأول مرة في 1887، واشتهرت الشَّخصية بمهارتها الشَّديدة في استخدام المنطق والمراقبة لحل القضايا، وقد يكون هو أشهر محقِّق خيالي في العالم، وهو بالفعل أحد

أكثر الشَّخصيَّات الأدبيَّة المعروفة بشكلٍ عالمي.

كتب كونان دويل أربع روايات، وستاً وخمسين قصَّة قصيرة من بطولة هولمز، رويت جميعها من قبل صديقه الحميم وكاتب سيرته دكتور جون هـ. واطسون، باستثناء قصَّتين رواهما هولمز بنفسه، واثنتين رويتا بضمير الغائب.

وصف شارلوك هولمز نفسه بأنَّه محقِّقٌ استشاري خبير، يتم استدعاؤه لحل القضايا التي يثبُت أنَّها صعبة الحل جدَّاً على المحققين الرَّسميين (النَّمطيين). وتُخبر القصص أنَّه كان قادراً في العديد من المناسبات على حل القضايا بدون مُغادرة بيته، دون أن تهتم القصص بتقديم الكثير من هذه القضايا الصَّغيرة، مُركِزَةً على القضايا المشوِّقة التي تتطلَّب منه القيام بتحريك ساقيه فعلاً. يتخصَّص هولمز في حل القضايا الغريبة مستخدماً قواه الاستثنائية في المراقبة والتَّحليل المنطقي.

يُصوَّر هولمز بشكلٍ دائم في الوسائط الإعلامية المختلفة مرتدياً قبعة صائد الأيائل وعباءته، مُدخناً غليوناً، وممسكاً بعدسةٍ مكبرة. ويوصف هولمز بأنَّه سيدٌ إنجليزي من الطِّراز الفيكتوري، طويلٌ ورشيقٌ، له عينان حادَّتان دقيقتان، وأنف معقوف. بالرُّغم من قامته النَّحيلة فإنَّ

قدراتـه البدنيَّـة عاليـة. هـو ملاكـمٌ ومبـارزٌ ماهرٌ، وعـادة ما يتغلَّـب عـلى خصومـه في المـرات القليلـة نسـبيَّاً التـي اضطر فيهـا للاشـتباك جسـديَّاً. وفي مغامـرة إكليـل العقيـق يقـول هولمـز أنَّـه: (يمتلك قوة اسـتثنائية في أصابعه). أمَّـا في مغامرة المنـزل الفـارغ فيذكـر أنَّـه: (يمتلـك القليل مـن المعرفة حول المصارعـة اليابانيـة). كان يعيـش هولمـز في لندن شـارع بيكر عنوان 221 B.

في أوَّل قصصـه، دراسـة بالقرمـزي، قُدِمَـت بعـض المعلومـات عن خلفيـة هولمـز. قُـدِم في 4 آذار 1881 على أنَّه طالـب كيميـاء مسـتقل، لـه مجموعةٌ واسـعةٌ مـن الاهتمامات الجانبيـة، وتقريبـاً؛ فـإنَّ كل هـذه الاهتمامات تصـب في مجرى مسـاعدته ليصبـح خارقـاً في حـل الجرائم. في مغامـرة أخرى مبكِّـرة بعنـوان مغامـرة غلوريـا سـكوت، تتضـح الأسـباب التـي دعت هولمـز إلى العمـل كمحقق خـاص؛ امتـداح والد زميله في الكلية الشَّديد لمواهبه وقدراته الاستنتاجيَّة.

في مغامـرة المترجـم الإغريقـي، يقـول هولمـز: أنَّ جدَّتـه كانت شـقيقة الرَّسـام الفرنسي فيرنو. وفي دراسـة بالقرمزي، يضع دكتور واطسون تقييماً لمهارات شارلوك:

ويعتـبر شـارلوك هولمـز أيضـاً مُحلِّـل شـفرات كـفء،

ويقول لواطسون: أنا متآلف مع كل أشكال الكتابة السريَّة بشكل جيد، وأنا نفسي مؤلف كتاب ثانوي حول الموضوع، حللت فيه مائة وستين شفرة منفصلة. حُلت إحدى الشَّفرات في مغامرة الرِّجال الرَّاقصين، التي استخدمت سلسلة من الأشكال الأوليَّة.

كما أظهر هولمز نفسه كأستاذ في التَّنكر بعد أن تنكر في أشكال مختلفة خلال مغامرات: بحار (علامة الأربعة) وسائس خيل، ورجل دين (فضيحة في بوهيميا)، ومدمن أفيون (الرَّجل ذو الشفة المقلوبة)، ومتبطل عادي (مغامرة إكليل العقيق)، وكاهن إيطالي عجوز (مغامرة المشكلة الأخيرة)، وبائع كتب (مغامرة البيت الفارغ)، وعامل تمديدات صحيَّة أو سبَّاك (مغامرة تشارلز أغسطس ميلفيرتون)، ورجل محتضر (مغامرة المحقِّق المحتضر)، وأخيراً متسول كلب آل باسكرفيل.

ويمكن اعتبار هولمز رائداً في علم الأدلَّة الجنائيَّة الحديث لاستخدامه هذا العلم في قضاياه، مثل: تعرفه على الفروقات بين أنواع الآلات الكاتبة لفضح الاحتيال (قضية هوية). وتوصله إلى جريمة باكتشافه قطعتين من البقايا البشرية (مغامرة صندوق الورق). وملاحظته لبقايا

بـارود عـلى الضحيـة (مغامـرة ميـدان ريغـاتي). وملاحظتـه نـوع الرَّصـاص المسـتخدَم في جريمتـين (مغامـرة البيـت الفـارغ). واسـتخدامه بصمـة الأصابـع لتحرير رجـل بريء (مغامرة باني نورووود).

عـاش شـارلوك هولـمز تاريخيـاً، في B 221 شـارع بيكـر، لنـدن منـذ 1881، حيـث أمـضى العديـد مـن سـنواته المهنية مـع صديقـه الحميـم دكتور واطسـون، الذي تشـارك الشـقة معـه قبـل زواج واطسـون في 1890. وكانـت تـشرف عـلى صيانـة الشـقة والاهتـمام بهـا السـيدة مارثـا هدسـون، مالكة البنايـة. وقـد وصـف دويـل الحـي الـذي يعيشـان فيـه بدقة، حتَّـى أنَّ الكثيريـن من القرَّاء زاروا شـارع بيكـر للبحث عن العنوان الخيالي.

ومـن أبـرز الشَّـخصيات التـي ظهـرت في حياة شـارلوك هولمز:

د. واطسون

واطسـون؛ صديـق هولـمز الحميـم، وكاتـب سـيرته الذَّاتيَّة، كـما أنَّـه يقـوم بتسـجيل معظـم قضايـا هولـمز. وفي القصـص الأخـيرة ينتقـد هولـمز واطسـون دائـماً لأنَّـه يـروي

القصص بشكلٍ مثيرٍ، مبتعداً عن الطَّريقة الموضوعية والمفصَّلة للتقارير التي تركز على ما يُسميه هولمز (العلم المحض). واطسون، بالمقابل، له سمعة مبررة بعض الشَّيء كرجل يميل إلى النّساء، يتكلَّم بحب عن بعض النِّساء، وفي بعض القصص الطَّويلة كثيراً ما يركِّز على جمال امرأة معيَّنة، وفي النِّهاية فإنَّه يتزوَّج واحدة بالفعل. ماري مورستان من رواية علامة الأربعة.

جيمس موريارتي

«عدو شارلوك هولمز الأزلي»

البروفيسور جيمس موريارتي (نابليون الجريمة)، هو في الأساس معلِّم الرياضيات الخصوصي لهولمز، كما أشير لذلك أيضاً في عمل بارينغ-غولد. وهو المشكلة الأساسية في العديد من قضايا شارلوك هولمز.

سقط مع هولمز أثناء صراعهما في شلالات راينباخ. ونوى كونان دويل أن تكون (المشكلة النِّهائية) التي حدث فيها ذلك، هي آخر قصة يكتبها عن هولمز، لكنَّ الرَّسائل الكثيرة التي استلمها مطالبةً بعودة هولمز أقنعته بالاستمرار في كتابة القصص. وفي (مغامرة المنزل الفارغ) أخبر كونان

دويل أنَّ موريارتي وحده من سقط في الشَّلال، وأنَّ هولمز جعل العالم يعتقد بأنَّه مات أيضاً ليراوغ أتباع موريارتي.

آيرين أدلر

المرأة الوحيدة التي أبدى هولمز اهتماماً بها. وتبعاً لما قاله واطسون، فإنَّ هولمز كان يشير إليها دائماً باعتبارها (المرأة). بالرُّغم من أنَّ هولمز نفسه لم يستخدم هذا المصطلح، على أنَّه ذكر اسمها الفعلي عدَّة مرات في قضايا أخرى. وهي أيضاً واحدة من النِّساء القلائل اللائي ذُكرن في قصص شارلوك هولمز، بالرُّغم من أنَّها ظهرت فقط في قصة فضيحة في بوهيميا، إلا أنَّها غالباً ما اعتبرت المرأة الوحيدة التي كسرت تحفُّظ هولمز. وهي المرأة الوحيدة التي هزمت هولمز في لغز.

مايكروفت هولمز

الشَّقيق الأكبر لهولمز، الذي يمتلك قوى تحليلية تفوق حتَّى تلك التي يتمتَّع بها شقيقه الأصغر. وبالرُّغم من ذلك فإنَّ مايكروفت غير قادر على أداء عمل تحرٍ مشابه لعمل شارلوك، لأنَّه لا ينوي بذل أي جهد جسدي

ضروري لحل القضايا.

ليس لديه طموح أو طاقة، ولن يتزحزح عن هذا حتَّى ليثبت حلوله الخاصَّة، ويُفضِل أن يُعتبر حله خاطئاً على أن يتحمَّل عناء إثبات صحة كلامه. كثيراً ما أخذت مُعضلاتي إليه، وحصلت منه على شروحات ثبت صحتها فيما بعد، غير أنَّه كان دائماً غير قادر على حل النّقاط العمليَّة.

إبهام المهندس

من بين كل المشاكل أو القضايا التي تولاها صديقي شارلوك هولمز وقام بحل غموضها خلال بدايات علاقتنا المميزة كان هناك قضيتان تولاهما بعد أن جئت أنا بهما إليه. إحدى تلك القضايا كانت قضية أو مغامرة إبهام المهندس وقضية جنون الكولونيل ووربورتون.

فقد وقعت أحداث قضية إبهام المهندس والتي أنا على وشك تلخيصها في صيف العام 1889، وذلك بعد زواجي بفترةٍ وجيزةٍ. في تلك الفترة كنتُ قد عدتُ لمزاولة مهنة الطّب في عيادة خاصّة بي، وانتقلتُ من السّكن مع شريكي وصديقي شارلوك هولمز في شارع بيكر. ومع ذلك بقيتُ أزوره بانتظام وبشكلٍ مستمر. وكانت أوضاع عيادتي قد بدأت بالتّحسن تدريجياً مع نجاحي في معالجة المرضى بشكلٍ جيّد وانتظامي في عملي. كما ساهم قرب محطة

بادنغتون من عيادتي بتحوُّل قسم كبير من موظفي المحطّة إلى مراجعين في عيادتي ، وأخذ أحدهم، وهو شخص عالجته من مرضٍ مُزمن، يعلن للملأ عن خصالي الجيّدة كطبيب وإنسان، ساعياً لكي يرسل إلى عيادتي كل من يعاني ممن هم في محيطه.

استيقظتُ يوم أحد على طرق الخادمة للباب في وقتٍ مبكّرٍ قبل السّابعة صباحاً، وأخبرتني بقدوم رجلين من محطّة بادنغتون وقالت لي أنّهما ينتظران في غرفة المعاينة. ارتديت ملابسي على عجل لمعرفتي بحكم التّجربة أنّ حالات موظفي السّكك الحديديَّة غالباً ما تكون جديّة وخطيرة. بعد أن انتهيتُ من ارتداء الملابس نزلتُ إلى العيادة بسرعةٍ وفيما كنتُ متّجهاً إلى الطّابق السُّفلي خرج زبوني القديم من الغرفة وأغلق الباب خلفه بإحكامٍ، ثمَّ همس قائلاً وهو يشير بإبهام يده اليمنى فوق كتفه: لقد أحضرته إليك، إنّه بخير الآن.

ما فهمته من تصرفه أنّه قد قام بحبس مخلوق غريب في غرفة الكشف الطبّي الخاصّة بي، فسألته: ما الأمر؟

فهمس مجدّداً: إنّه مريض جديد. لقد فكّرت بإحضاره إليك بنفسي حتى لا يتهرّب من العلاج، وها هو الآن في

الداخـل بخيرٍ وأمان. يجـب أن أنصرف الآن يـا دكتور فلدي من الواجبات الشّيء الكثير مثلك تماماً.

ثـمّ توجّـه خارجـاً دون أن يسـمح لي بتقديـم الشُّكر لـه لكونه زبون وفيّ ومخلص.

دخلـت إلى غرفـة المعاينـة لأجد شـاباً يجلـس بالقرب من الطّاولـة وقـد ارتـدى بذلـةً مـن الجـوخ المنقّـط، ووضـع على رأسـه قبّعة مـن القماش النّاعم. كان لباسـه يشي بأنّه شـخصٌ محافـظٌ تمامـاً. مـا أن دخلـتُ حتّـى خلـع القبعـة عـن رأسـه ووضعهـا فـوق كتبـي عـلى الطّاولـة. كانـت إحـدى يديـه ملفوفـةٌ بمنديـل عليـه بقـع مـن الـدّم. كان شـاباً لا يتجـاوز الخامسـة والعشريـن مـن العمـر، يتمتّـع بوجـه ذو ملامـح قويّـة، لكنّـه بـدا شـاحباً جـدّاً ما ولَّـد لـدي انطباع أنّـه يعاني اضطراباً شديداً تطلَّب منه كل تركيزه ليتحكّم به.

قال: أنا آسف لحضوري في هذا الوقت المبكّر جدّاً يا دكتور، لكن حادثة خطيرة جداً وقعت لي خلال اللّيل الفائت ولهذا جئتُ بالقطار هذا الصّباح. وحين سألتُ في محطة بادنغتون عن طبيب، تكرّم شخصٌ نبيلٌ باصطحابي إلى عيادتك، وقد أعطيت الخادمة بطاقتي التّعريفيَّة لكن يبدو أنّها وضعتها على تلك الطّاولة الصّغيرة ولم تسلمها لك.

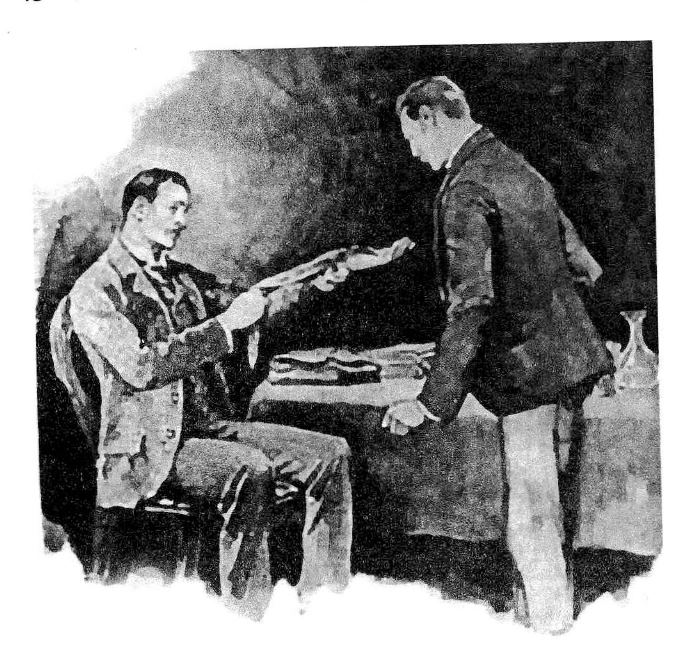
أخـذتُ البطاقـة وتمعَّنـتُ فيهـا فقـرأت: السـيد فيكتـور هايشـرلي، مهنـدس ميكانيـك، العنـوان 16 (أ) شـارع فيكتوريا، الطّابق الثالث.

كانـت تلـك كل مواصفـات زائـري في الصّبـاح الباكـر إضافـةً إلى اسـمه وعنوانـه. قلـت لـه وأنا أجلـس على كرسي المكتـب: أعتـذر لأنّي جعلتُـكَ تنتظر فـترةً طويلةً. يبـدو أنّك وصلـت للتـو مـن رحلـةٍ ليليّةٍ كـما فهمـت، وعادة مـا تكون هذه الرّحلات مملة للغاية.

فأجـاب قائـلاً: آه، لا يمكننـي القـول بـأنّ ليلتـي كانـت مملـة. ثـمّ ضحـك بقـوّةٍ وبصـوتٍ قـوي ومرتفـع جـدّاً وهو يميـل على الكـرسي إلى الخلـف وقد أخـذ جسـمه بالاهتزاز، مـا اسـتفز غريـزتي الطبيّـة ضـد هكـذا نـوع مـن الضّحـك لأصيح قائلاً: أرجوك توقف، عليك أن تتمالك نفسك!

ثـم ناولتـه كأسـاً مـن المـاء لكـن دون فائـدة، فقـد بـدأ بضحكـةٍ هسـتيريةٍ جديـدةٍ، وكأنّه أحد الشّـخصيات الكبيرة يمـر بأزمـة أو محنـة رهيبـةٍ لا يعـرف كيـف يخـرج منهـا. بعد حـين عـاد إلى طبيعتـه الهادئة مرةً أخـرى، لكنّه بـدا متعباً جداً وشديد الشحوب.

شهق بعمق وقال: لقد تصرّفتُ بحماقةٍ.



- لا، على الإطلاق. تفضّل اشرب الماء.

بدأ اللّون يعود إلى خديه الشّاحبين وقال: هكذا أفضل، أفضل بكثير. والآن يا دكتور أرجو أن تُعاين إبهامي أو بشكل أكثر دقة المكان الذي كان يوجد فيه إبهامي.

ثمّ قام بحلّ المنديل ورفع يده بوجهي لتهتز أعصابي الثّابتة عادةً وأنا أرى أربعة أصابع تصطف بجانب سطح لحمي بشع لونه أحمر وشكله إسفنجي في المكان، حيث يجب أن يكون

الإبهام الذي يبدو أنَّه بُتر أو اقتلع من جذره!

صحت قائلاً: يا إلهي! هذه إصابةٌ رهيبةٌ، لا بد أنّك نزفت كثيراً.

- نعم، بالفعل، كما أني فقدت الوعي عندما وقعت الحادثة، وأعتقد أنّي غبتُ عن الوعي لفترةٍ طويلةٍ. وعندما استعدتُ وعيي ووجدتُ أنّ الجرح ما زال ينزف، قمت بربط أحد أطراف منديلي حول الرسغ بشدّة وثبته إلى الأعلى بغصنٍ رفيع.

- ممتاز، أديتَ عملاً كما لو أنّك جرّاحٌ ماهرٌ.

- إنّ للأمر علاقة بحركة السّوائل كما تعرف وهذا من ضمن اختصاصي.

فقلتُ فيما كنتُ أتفحّص الجرح: لقد أُصِبتُ بواسطة أداة حادَّةٍ وثقيلةٍ جدّاً.

- إنّه شيء أقرب ما يكون لسكينٍ كبيرٍ أو ساطور.

- إنّ الأمر حادثة على ما أعتقد؟

- أبداً.

- ماذا إذن؟ هل تعرّضت لاعتداء جرمي؟

- إجرامي جدّاً.

- إنّك تخيفني.

مسحتُ الجرح ونظّفتهُ جيِّداً ثمّ ضمدته، وأخيراً قمتُ بتغطيته بقطعةٍ من القطن والضمادات المعقمة. كان الرّجل في الأثناء مستلقياً دون حراك، لكنَّه أخذ يعض على شفتيه من الألم بين الحين والآخر وعندما انتهيت سألته: ما رأيك بما قمت به من أجلك؟

- ممتاز. أشعر الآن وكأنّني شخصٌ جديد، فقد كنتُ أشعر بضعفٍ شديد، لكنّي تجاوزتُ الكثير من الصّعاب في حياتي.

- ربما من الأفضل ألا تتحدّث عن الأمر، فمن الواضح أن هذا سيشكل ضغطاً كبيراً على أعصابك.

- آه، هذا غير ممكن حالياً، فأنا مُضطّرٌ لسرد قصّتي للشّرطة، ولولا هذا الجرح الذي يصلح كدليلٍ مُقنع لما حدث بالفعل لكنتُ فوجئتُ إذا هم صدّقوا كلمةً واحدةً من قصتي. إنّها قصّة غريبة جداً ولا أملك أي دليل يدعم كلامي، وحتّى لو صدّقتني الشرطة فالأدلة التي أستطيع تقديمها لدعم القضية غامضةٌ جدّاً وغير مفهومة، لدرجة أعتقد فيها جازماً أنّ العدالة لن تتمكّن من أخذ مجراها في هذه القضية.

هتفتُ قائلاً: إذا كانت معضلة أرغب بحلها فإنّي أنصحك بأن تلجأ إلى صديقي السّيد شارلوك هولمز قبل الذّهاب إلى الشرطة.

أجاب مريضي: آه، لقد سمعت بهذا الرّجل من قبل وسوف يكون من دواعي سروري أن يتولّى هو هذه القضية بنفسه، هل يمكن أن تعطيني بطاقتك التّعريفية لأُقدِّمها له؟

سوف أقوم بأفضل من ذلك. سوف أرافقك وآخذك إليه بنفسي.

- سأكون بغاية الامتنان لك يا سيدي.

- حسناً إذن، سنطلب عربة أجرة ونذهب معاً، وهكذا نصل في الوقت المناسب لتناول إفطار بسيط معه. هل تشعر بأنّك قادرٌ على ذلك؟

- نعم، فأنا لن أشعر بالاطمئنان أو الرّاحة حتى أروي قصّتي.

- حسناً إذن، سوف يطلب خادمي عربة أجرة وسأكون معك بعد لحظة.

ثمّ أسرعتُ إلى الطّابق العلوي لأخبر زوجتي الأمر

باختصـار. وخـلال خمـس دقائـق كنت برفقـة الرجـل الذي تعرّفت للتّو عليه في عربةٍ صغيرةٍ متّجهةٍ إلى شارع بيكر.

وكـما توقّعـت كان شـارلوك هولمـز مسـتلقياً بكسـل في غرفـة الجلـوس وقد ارتـدى ملابس المنـزل المريحـة، وانهمك بقراءة صفحة الإعلانات الشّخصية في جريدة التّايمز.

استقبلنا بهدوئه ولطفه المعتاد، وطلب كميّةً إضافيّةً من شرائح اللّحم والبيض، ثم تشاركنا جميعاً وجبة إفطار غنيّة.

بعد أن انتهينا من الإفطار دعا هولمز ضيفنا للاستلقاء والاستراحة على الأريكة، ووضع له وسادة تحت رأسه وكأساً من الماء بالقرب من متناول يده، ثم قال: من الواضح أنّ التّجربة التي مررت بها لم تكن عاديّة يا سيد هاثرلي. أرجو أن تستريح هنا على الأريكة وتعتبر نفسك كما لو أنّك في بيتك. بعد ذلك يمكنك أن تُخبرنا بمقدار ماتستطيع ولك أن تتوقّف عندما تشعر بالإرهاق أو التّعب.

فقال الضّيف المريض: شكراً لك، لكنّي أشعر بأنّ حالتي أفضل بعد أن قام الطّبيب بتضميد جرحي، كما أعتقد أنّ إفطارك الذي تكرّمت به قد جعلني بوضع أفضل بكثير من السّابق. سوف آخذ من وقتك الثّمين أقل قدر ممكن وسأبدأ على الفور بقص حكايتي الغريبة عليك.



جلس هولمز بتكاسل على مقعده الكبير المريح وعينيه نصف المغلقتين تخفيان طبيعته اليقظة دوماً لكن بتهذيب، فيما جلستُ أنا على الكرسي المقابل، وأخذنا نستمع بصمتٍ إلى القصّة الغريبة فعلاً التي روى زائرنا تفاصيلها علينا كالتّالي:

قال ضيفنا: يجب أن تعرفا أولاً أنّني يتيم وأعزب وأقطن لوحدي في منزل بلندن. إنّي مهندس ميكانيك هيدروليكي وقد أصبح لدي خبرة كبيرة خلال السَّنوات السّبع الماضية حيث تدرّبتُ في شركة فينر وماثسون المعروفة في منطقة

غرينتش. انتهيتُ من تدريبي منذ عامين، وأصبح دخلي أفضل ،كما حصلت أيضاً على مبلغ جيِّد من المال بعد وفاة والدي. عندها قرّرتُ أن أبدأ عملاً خاصّاً واستأجرتُ مكتباً في موقع مناسب للعمل في شارع فيكتوريا.

لا بد أنّ كل شخص يجد الأمر مُملاً عندما يبدأ عملاً مستقلاً، وبالنّسبة لي كان الأمر مُملاً لدرجةٍ كبيرةٍ، فخلال عامين لم أتمكّن من الحصول سوى على ثلاثة استشارات ومهمّة صغيرة واحدة فقط. وكان هذا كل ما عملته طوال سنتين، وقد بلغ مجموع ما جنيته خلالها سبعة وعشرون جنيهاً وعشرة شلنات. كنتُ أنتظر كل يوم في مكتبي من التّاسعة صباحاً حتّى الرّابعة بعد الظّهر، حتّى بدأتُ أقتنع أخيراً أنّه كان من الخطأ أن أفتح مكتباً خاصّاً بي.

يوم أمس وفيما كنت أهم بمغادرة المكتب دخل سكرتيري ليخبرني أنّ سيداً محترماً ينتظر الإذن بمقابلتي بخصوص عمل ما، وقدم لي بطاقة تعريف مطبوع عليها اسم الكولونيل ليساندر ستارك. بعد ذلك دخل الكولونيل بنفسه. كان رجلاً متوسط الحجم لكنّه نحيلٌ للغاية، بحيث لا أعتقد أنّي رأيت رجلاً بمثل نحافته من قبل، فقد بدا وكأنّ وجهه قد تحوّل إلى أنفٍ وذقنٍ حادين، فيما بدت

بشرة خدّيه مشدودة جداً فوق عظام وجهه النّاتئة. لكن كان واضحاً أنّ نحافته طبيعية وليست ناتجة عن مرضٍ خطيرٍ أو ما شابه، فقد كانت عيناه تلمعان بحيويّةٍ وبدت خطواته سريعة ورشيقة وتصرفاته واثقة. كانت ملابسه بسيطةً لكنّها مرتبة، وكان يبلغ من العمر على ما أعتقد أربعين عاماً أو أكثر من ثلاثين عاماً.

تقدّم نحوي وتحدّث الانكليزية بلكنةٍ ألمانيّةٍ واضحةٍ: لقد تمّ ترشيحك لي يا سيد هاثرلي، ليس لكونك ماهراً فحسب بل لأنّك شخصٌ ملتزمٌ أيضاً وقادر على كتم الأسرار.

فانحنيتُ وأنا أشعر بالفخر كأي شاب يستمع إلى هذا المديح، وقلتُ له: هل يمكنني أن أسأل من رشّحني لك ياسيدي؟

- حسناً، ربما من الأفضل ألا أخبرك بذلك في الوقت الحاضر. كما أنّني عرفتُ من المصدر نفسه أنّك يتيمٌ وأعزب وتعيش في لندن بمفردك.

أجبته قائلاً: هذا صحيح تماماً، لكن اعذرني لو قلت لك لا أعرف كيف يمكن لهذه التّفاصيل أن تكون مهمّة في عملي، فقد فهمتُ أنّك تريد لقائي من أجل عملٍ ما.



- بلا شك، لكنَّك ستعرف أنّ كل ما أقوله لك هو جزء مهم من الموضوع الذي جئتُ من أجله. أنا أعرض عليك عملاً لكن السريّة المطلقة شرط أساسي فيه. السريّة المطلقة، هل تفهم ما أعنيه؟ وبالطّبع أتوقّع ذلك من شخص وحيد أكثر مما أرجوه من شخص يعيش في أحضان عائلته.

فقلت: إذا وعدتُك بكتمان الأمر، يمكنك أن تعتمد على وعدي فأنا عادة أحافظ على وعودي.

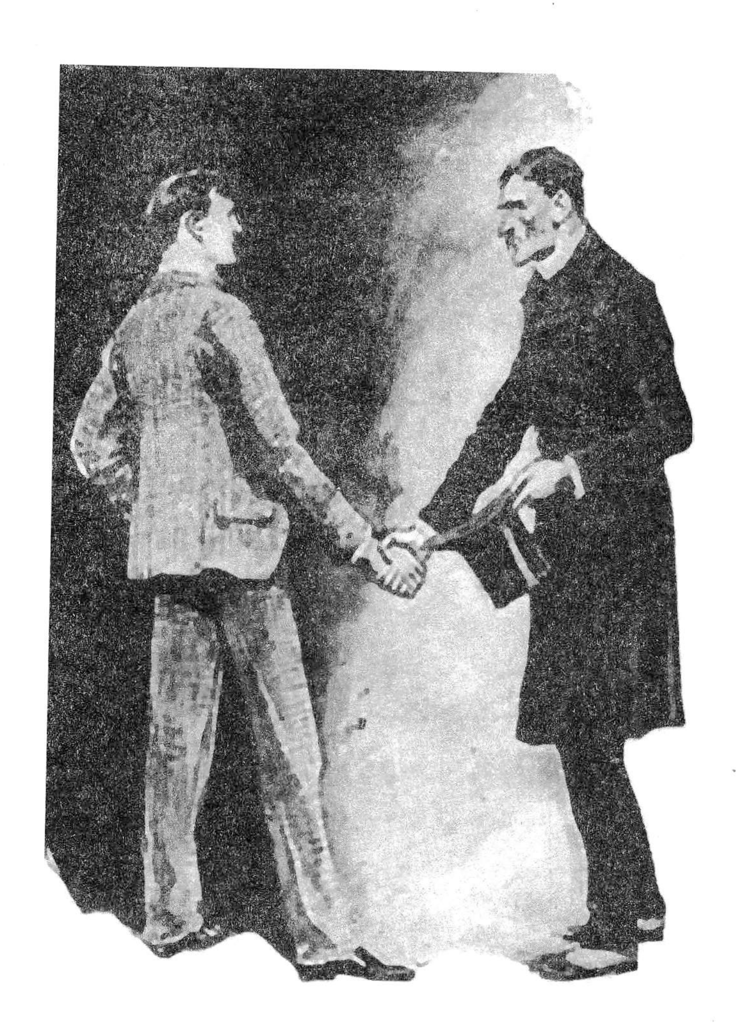
نظر إليّ بحدَّةٍ شديدةٍ فيما كنت أتكلّم وكان الشّك يملأ عينيه. أنا لم أقابل في حياتي رجلاً يشك بالآخرين إلى هذه الدّرجة، وبعد انتظار قال: هل تعدني بكتمان الأمر بشكلٍ مطلق؟

- نعم، أعدك بذلك.

- الكتمان المطلق والكامل، قبل المهمة وأثناءها وبعدها؟ وأن لا تشير إلى الموضوع من قريب أو بعيد مطلقاً سواء بالكلام أو بشكلٍ مكتوب؟

- لقد أعطيتك وعدي على هذا.

فقال: إذن، هذا ممتاز. ثمّ هبَّ واقفاً وانطلق باتّجاه الباب فجأةً وفتحه.



كان الممر أمام الباب خالياً. عاد إلى مكانه بعد أن تأكّد من خلوه وقال: كل شيء بخير، فأنا أعرف أنّ الموظفين قد يكونوا فضوليين لمعرفة أمور مدرائهم. والآن نستطيع أن نتحدّث بحريّةٍ.

سحب كرسيه فاقترب مني إلى درجةٍ كبيرةٍ ثمّ عاد يحدِّق بي بتلك النّظرة المتفحِّصة المليئة بالشّك. فانتابني شعورٌ كريه وأخذ الخوف يتسلَّل إلى نفسي بسبب تصرفات هذا الرّجل الهزيل الغريبة، وحتّى خوفي من فقدان زبون أنا بأشد الحاجة له لم يردعني من إظهار نفاذ صبري لهذا الأمر، وقلت له: أرجو أن تخبرني عن المَهمّة المطلوبة مني يا سيدي، فوقتي ثمين.

كان هذا جل ما قلته لزائري الغريب، وليغفر الله كذبتي هذه. فسألني: هل يناسبك خمسون جنيهاً كأجر في اللّيلة الواحدة؟

- طبعاً يناسبني. إنّه ممتاز.

- أقول لك عمل ليلة واحدة، وإن كانت المهمة لن تستغرق أكثر من ساعة في حقيقة الأمر. فأنا أريد رأيك بمكبسٍ هيدروليكي لا يعمل بشكلٍ جيِّد. وإذا تمكّنتَ من معرفة سبب العطل وأخبرتنا به فسوف نقوم بإصلاحه

بأنفسنا. ما رأيك بهذه المَهمّة؟

- تبدو سهلة وأجرها مرتفع.

- بالضّبط، نريدك أن تأتي إلينا اللّيلة في الرحلة الأخيرة للقطار.

- إلى أين يتوجّب عليّ الذّهاب؟

- إلى بلدة آيفورد في مقاطعة بيركشاير. إنّها بلدةً صغيرة بالقرب من حدود أوكسفورد شاير، وتبعد سبعة أميال عن ريدينغ. إذا أخذتَ رحلة القطار من محطة بادنغتون فسوف يوصلك إلى هناك حوالي الحادية عشرة والربع.

- ممتاز.

- وسأحضر في عربةٍ لاستقبالك.

- أمامنا مسافة لنقطعها بالعربة إذن؟

- نعم، إنّ منزلنا الصّغير في الريف، فهو يبعد سبعة أميال عن محطّة آيفورد.

- إذن لن نصل إلى المكان قبل منتصف الليل، فهل أجد قطاراً في رحلة العودة في ذلك الوقت أم أنّي سأضطرّ إلى قضاء اللّيل هناك؟

- يمكننا تدبير مكان لنومك هناك بسهولة.

- هـذا غريـب جـدّاً، ألا يمكـن أن أذهـب بوقـتٍ أفضل من هذا التّوقيت؟

- لقـد قرّرنـا أنّـه مـن الأفضـل أن تـأتي في وقـت متأخّـر وسـوف ندفـع لـك، بـما أنّـك شـابٌ غـير معـروفٍ، أجـراً نسـتطيع بهـا شراء رأي أكـبر خـبراء مهنتـك، وذلـك لتعويضـك عـن أي إزعـاج. لكـن بالطّبـع إذا أردتَ الانسحاب من هذا العمل فالقرار يعود لك.

فكّـرتُ بالجنيهـات الخمسـين التـي سـأجنيها مـن هـذه المهمّـة التـي تبـدو سـهلةً في ظاهرهـا، فقلـتُ لـه: لا، أبـداً. سـيكون من دواعـي سروري أن أتكيّف مع مـا يريده الزّبون، لكنّي أرجو أن أفهم ماذا تريد مني أن أفعل.

- بالضّبـط، مـن الطّبيعـي أن تثير السرية التـي يُحاط به أي موضـوع فضولك، وليسـت لـدي أي نية بإلزامـك بأي شيء دون أن تعـرف التّفاصيـل. هـل يمكننـي الافـتراض أنّـه لا يوجد هنا من يتنصت علينا؟

- طبعاً.

- إنّ الوضع كالتّالي: أنت تعرف مسحوق تبييض الملابس. إنّه منتجٌ ثمين لا يوجد في انكلترا إلا في أماكن قليلة.

- أعرف ذلك.

- وقد قمتُ أنا بشراء أرضٍ صغيرةٍ منذ زمنٍ قصيرٍ وهي أرضٌ صغيرةٌ جدّاً، تبعد عن ريدنغ عشرة أميال. لقد حالفني الحظ فاكتشفتُ ترسبّات لمسحوق تبييض الملابس في أحد حقولي، وعندما فحصته وجدتُ أنّ تلك البقعة الصّغيرة نسبيّاً وهي تقع بين حقلين أكبر بكثير على يمينها ويسارها وكلاهما يقعان في أرض جيراني. إنّ أولئك النّاس الطّيبون أصحاب الحقلين لا يعلمون عن هذا الأمر شيئاً، ويجهلون أنّ أرضهم تحوي بداخلها ما تعادل قيمته منجماً للذّهب، وبطبيعة الحال رغبتُ في شراء أراضيهم قبل أن يعرفوا القيمة الحقيقية، لكن من سوء حظي أنّي لا أملك ما يكفي من المال الذي يؤهلني لشراء الأرض، فقمتُ باستشارة بعض الأصدقاء المقرّبين فاقترحوا أن نقوم باستخراج مخزوننا الصّغير وبيعه بسريّةٍ وهدوء، وبهذا نستطيع أن نجني ما يكفي من المال لشراء الحقول المجاورة. وهذا ما نقوم به الآن وقد بدأنا به منذ بضع الوقت، وقمنا لأجل هذه الغاية باستخدام مكبسٍ هيدروليكي حتّى يساعدنا في مهمّتنا. وقد تعطّل المكبس كما أسلفت ولهذا نريدك أن تساعدنا بشأنه. ولأنّنا نريد أن

نحافظ على سريّة نشاطنا جئت إليك أنت طلباً للمساعدة لأنّ النّاس إذا شاهدوا مهندساً ميكانيكياً يزور منزلي الصّغير سوف يبدؤون على الفور بالتّساؤل عن السّبب وعندها سوف تُعرف الحقيقة ونفقد الفرصة بشراء الأرض وبالتّالي تفشل كل خططنا. من أجل ذلك، جعلتك تعطيني عهداً بأنّك لن تبوح لأي مخلوق بزيارتك إلى آيفورد اللّيلة. أرجو أن أكون قد أوضحت كل شيء.

قلت له: لقد فهمتُ ما تريده بالضّبط، لكن النقطة الوحيدة التي لم أفهمها هي دور المكبس الهيدروليكي في استخراج المبيض، فهو يُستخرج بالحفر كما فهمت؟

فقال بلا مبالاة: آه، إنّنا نتبع طريقة خاصة. فنحن نقوم بضغط التراب حتّى يتحجّر وذلك من أجل أن ننقله دون أن يعلم أحد أننا نفعل ذلك. على كل حال هذا الأمر ليس سوى شيء ثانوي. أعتقد يا سيد هاثيرلي بأنّي أظهرتُ لك من الثقة بك ما يكفي في هذا الأمر. أرجو أنت أن تثق بي.

ثمّ نهض وهو يقول: سأنتظرك إذن في السّاعة الحادية عشرة والربع.

- ستجدني في الموعد المحدّد بالتّأكيد.

- إيّاك أن تخبر أحداً عن هذا الأمر.

قال ذلك ورمقني بنظرةٍ متشكّكةٍ أخيرة لكن طويلة هذه المرّة، ثمّ أمسك بيدي وضغط عليها بقبضته الباردة وخرج من الغرفة بسرعة.

حسناً، عندما أفكّر بالأمر الآن بهدوء، أجد أنَّني كنت مندهشاً جداً بهذه المهمة المفاجئة التي تمَّ تكليفي بها. فمن ناحية كنت سعيداً جدّاً بالأجر الكبير جداً والمفاجئ الذي وصل إليّ والذي كان يماثل عشرة أمثال ما كنت سأطلبه لقاء خدمة من هذا النّوع، كما أنّ من الممكن أن تتبع هذا الطّلب طلبات أخرى، ومن ناحيةٍ أخرى خلف وجه عميلي وتصرفاته انطباعاً سيّئاً في نفسي، ولم أقتنع بأنّ تفسيره الخاص بمسحوق مبيّض الثّياب كان كافياً بالشّكل المطلوب لتبرير ضرورة سفري بمنتصف اللّيل، إضافةً إلى قلقه الشّديد خشية أن أُخبر أحداً بالموضوع. وفي النّهاية، رميتُ شكوكي خلف ظهري وأكلتُ وجبةً ضخمة، ثمّ ركبتُ عربةً حتّى محطة بادنغتون وبدأتُ من هناك رحلتي.

لقد أطعتُ أوامره بكتمان الأمر، وانتقلتُ إلى قطارٍ آخر في محطّة ريدنغ وتمكّنت من اللّحاق برحلة القطار الأخيرة المتَّجهة إلى آيفورد، فوصلتُ إلى المحطّة الصّغيرة المُعتِمة

بعد الحادية عشرة. كنتُ المسافر الوحيد الذي نزل من القطار هناك، ولم أجد على الرَّصيف سوى حمّال متعَب يحمِلُ بيده مصباحاً، فعبرتُ إلى البوابة الصّغيرة ،ووجدتُ الشَّخص الذي تعرَّفتُ عليه في الصّباح ينتظرني في مكانٍ مُظلم على الجانب الآخر. وما أن وصلتُ بجانبه حتَّى جذبني من ذراعي دون أن ينبس ببنت شفة طالباً مني الإسراع بالدُّخول إلى العربة التي كان بابها مفتوحاً. وبعد أن أصبحنا بداخلها أغلق جميع النّوافذ، وأسدل الستائر ثمَّ طرق في إشارةٍ للانطلاق، فابتعدنا بأسرع ما يستطيع الحصان من قوّة، ثمّ...

قاطعه هولمز قائلاً: حصان واحد؟

- نعم، واحدٌ فقط.

- هل لاحظت لونه؟

- نعم، لقد رأيته على ضوء المصابيح الجانبية وأنا أدخل العربة.

- هل بدا عليه التّعب أم النّشاط؟

- بل بدا نشيطاً ولامعاً.

- شكراً، أعتذر عن المقاطعة. يمكنك أن تكمل سرد

حكايتك الشيِّقة.

- ابتعدنا كثيراً، فقد مرّت ساعة على الأقل ونحن بالعربة وهي تسير، وبالرّغم من أنَّ الكولونيل ستارك قال أنَّ الطَّريق لا يبعد سوى سبعة أميال فقط عن المحطّة فإنّني أعتقد، اعتماداً على المعدَّل الذي كنّا نسير به وعلى الوقت الذي استغرقته الرحلة، أنّ المسافة تزيد عن اثنتي عشر ميلاً.

كان الرجل يجلس صامتاً بجانبي طوال الرحلة، وشعِرتُ أكثر من مرَّة حين كنتُ أنظر إليه أنّه كان يرمقني بنظراتٍ شديدة الحِدَّة لكن ليس بشكلٍ مُباشر. كما أنّ الطَّريق كان وعراً، فأخذنا نتمايل ونتخبَّط في العربة، فحاولتُ النَّظر من النَّوافذ لأرى أين كنّا لكنّها كانت من الزُّجاج الكثيف غير الشَّفَّاف ولم أتمكَّن من تمييز شيءٍ سوى اللَّمعان الضّبابي لبعض الأنوار العابرة بين الحين والآخر. ثمَّ جازفتُ بكسر الصّمت القائم، وبدأتُ أقول بعض الملاحظات لنتخلَّص من الملل، لكن الكولونيل كان يُجيب بجملٍ مقتضبة فقط، لذلك سرعان ما توقَّفت المحادثة.

وأخيراً تجاوزنا المنطقة السّيئة من الطَّريق وبدأنا نسير

على طريق معبَّدٍ بالحصى كما شعرت، ثمّ توقّفت العربة، وترجَّل الكولونيل، وحين انحنيتُ لأخرج من العربة سحبني بسرعةٍ إلى مدخلٍ مسقوفٍ أمامنا مباشرةً من العربة إلى قاعة منزل. وهكذا لم أتمكَّن من رؤية المدخل ولو للحظة، كما تمَّ إغلاق الباب خلفي مباشرة في اللَّحظة التي اجتزتُ فيها العتبة وسمِعتُ صوت عجلات العربة وهي تبتعد عن المكان.

ساد الظّلام الدّامس داخل المنزل، وأخذ الكولونيل يتلمس طريقه بحثاً عن عود ثقاب وهو يتمتم. وفجأة فُتح باب في نهاية الممر، وظهر شعاع ضوءٍ ذهبي يتَّجه نحونا، ثمَّ اتّسعت مساحة الضّوء بعد أن كانت ضيِّقة وظهرت امرأةٌ تُمسِكُ بيدها مُصباحاً وترفعه فوق رأسها وهي تُحلِقُ بنا. استطعتُ رؤية جمالها، وعَرفتُ أنَّها ترتدي ثوباً أسوداً غالي الثّمن من لمعة الضَّوء عليه.

قالت بضع كلمات بلغةٍ أجنبيةٍ وبنبرةٍ توحي بأنّها تطرحُ سؤالاً، وعندما أجاب الكولونيل بطريقةٍ فظّةٍ ومقتضبةٍ جعلتها تجفل حتّى كاد المصباح أن يسقط من يدها، فاقترب منها وهمس في أذنها ببضع كلمات، ثمّ دفعها إلى داخل الغرفة التي خرجت منها، وتوجَّه إليَّ

حاملاً معه المصباح وقال وهو يفتح باباً آخر: أرجو أن تتكرّم بالانتظار في هذه الغرفة لبضعة دقائق فقط.

كانت غرفة هادئة وصغيرة مفروشة بشكلٍ بسيط وكان في وسطها طاولة مستديرة تناثرت عليها مجموعة من الكتب باللُّغة الألمانيّة. وضع الكولونيل ستارك المصباح فوق آلةٍ موسيقيَّةٍ كانت بجوار الباب وقال: لن أغيب عنك لفترةٍ طويلةٍ. ثمَّ ذهب واختفى في الظّلمة.

ألقيتُ نظرةً على الكتب الموجودة على الطّاولة، وبالرُّغم من عدم مقدرتي على فهم الألمانيّة عرفت أنَّ اثنين من الكتب يتحدَّثان عن أبحاثٍ علميَّةٍ، أمّا الكتب الأخرى فكانت كتباً أدبيَّةٍ خاصّة بالشّعر. بعد تفحُّص الطَّاولة والكتب توجَّهتُ نحو النّافذة بأمل رؤية بعض المناظر الريفيَّة الجميلة لكنَّها كانت مغلقةً بدرفتين من الخشب، ومصراعيها مغلقين بإحكام، وكان رؤية المنظر الخارجي معدومةٌ تماماً.

كان المنزل هادئاً بشكلٍ مُثيرٍ للرِّيبة، ولو لا دقَّات ساعة ما في الممر لكان الصَّمت سيِّد الموقف بلا منازع هناك. بدأ شعور بعدم الرّاحة يتسلَّل إلى نفسي، وبدأتُ أتساءل من يكونوا هؤلاء الألمان؟ ولماذا يعيشون في هذا المكان

الغريـب والبعيـد؟ وأيـن يقـع هـذا المكان؟ لقـد كنـتُ على مسـافة عـشرة أميـال تقريبـاً مـن محطَّـة آيفـورد، هـذا كل ما أعرفـه، لكنـي لا أعـرف مـا إذا كان ذلـك باتّجـاه الشّـمال أو الجنـوب أو الـشّرق أو الغـرب! ربـما أنّ ريدنـغ ومدنـاً كبيرة أخـرى قـد تكون ضمـن هذا المجـال، يمكـن ألا يكـون هذا المنـزل في منطقـةٍ منعزلـةٍ جـدّاً، لكنّـه يقـع في قلـب الرّيـف بالتّأكيد بدليل هذا السّكون التّام.

أخـذتُ أذرع الغرفـة ذهابـاً وإياباً، وأدنـدن أغنيةً بصوتٍ خافـتٍ لكـي أحتفـظ بمعنويـاتي عالية وأشـعر بأنّي أسـتحق فعـلاً الجنيهات الخمسـين. وفجأةً وبـدون أن أشـعر أنَّ هناك مـن يقـترب مـن بـاب الغرفة، فُتـح البـاب ببطء لأجـد المرأة تقـف على عتبتـه وضوء المصبـاح الأصفـر يُلقـي بضوئه على وجههـا الجميـل الـذي تعلـوه ملامـح القلـق. أدركـتُ فوراً أنّهـا خائفـةٌ جـدّاً مـن شيء مـا فـدب الرعـب في أوصـالي. رفعـت هي إصبعاً مُرتعشـاً لتشـير إليّ ألا أُصـدر أي صوت، ثـمَّ قالت لي بضـع كلماتٍ سريعـةٍ بإنكليزيّةٍ ركيكـةٍ، وعيناها تجوبـان الظُّلمـة خلـف البـاب في الممـر، وكأنّهـا خائفـةٌ مما يطاردهـا. قالـت وهـي تحاول أن تكـون هادئـةً بقـدر مـا تسـتطيع: لـو كنـتُ مكانك لغـادرتُ المكان بسرعـةٍ. لا يجب

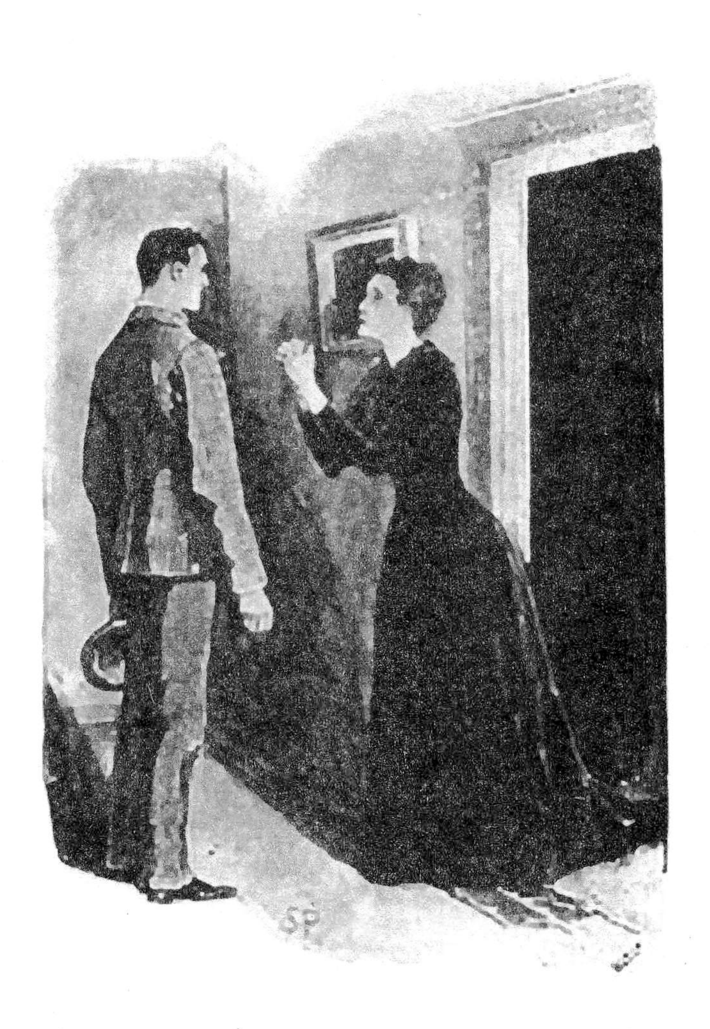
أن تبقى هنا... لن يكون بصالحك البقاء في هذا المكان.

فقلتُ لها: ولكني لم أؤد المهمّة التي كُلِّفتُ بها بعد وجئتُ من أجل تنفيذها يا سيدتي. وليس من المُمكن أن أغادر قبل أن أرى الآلة.

فتابعت قائلةً: إنّ الأمر لا يستحق انتباهك وتعبك. يُمكنك الخروج من الباب ولن تجد من يمنعك.

وعندما رأتني أهزُّ رأسي مبتسماً تخلَّت عن تحفُّظها وتقدَّمت نحوي قائلةً: اخرج من هنا بالله عليك قبل فوات الأوان.

لكنّي عنيدٌ بطبيعتي، وعادةً ما تزداد رغبتي في المضي بأمرٍ ما إذا وجدت عقبات في طريقي. كما فكَّرت بالجنيهات الخمسين التي سأجنيها، وفي رحلتي الطّويلة المرهقة، والمسافة البعيدة التي قطعتها وقلت لنفسي: هل أدع كل هذا يذهب بلا ثمن؟ ولماذا أهرب دون أداء مهمّتي التي جئتُ من أجلها؟ وما أدراني أن تكون هذه المرأة مجرّد مجنونة. لذلك وبالرُّغم من الانطباع القوي الذي خلَّفتهُ هذه المرأة لدي، إلا أنّي اتَّخذت قراراً شُجاعاً وهززت رأسي بعدم الموافقة على اقتراحها وقرَّرت البقاء حيث أنا.



لكنّها لم تيأس وكانت على وشك المحاولة معي مجدَّداً حين سمعنا صوت إغلاق بابٍ في الطّابق العلوي وسُمع صوت خطوات تنزل الدّرج، فأرهفتْ السّمع ورفعت يدها بحركةٍ يائسةٍ من إنقاذي ثمّ اختفت فجأةً بدون ضجَّةٍ كما ظهرت.

كان القادمان إلي الكولونيل ستارك وبصحبته رجلٌ قصير وسمين تُغطي وجهه لحيةٌ سميكةٌ، وقد قدَّمه ستارك لي على أنّه السيد فيرغسون. قال الكولونيل: إنّه مساعدي ومدير أعمالي. بالمناسبة، أظن أنّي تركتُ هذا الباب مغلقاً، أخشى أن تكونَ قد تعرّضتَ لبعض البرد بسبب تيار الهواء البارد في الخارج.

فقلت: على العكس، لقد فَتحتُ الباب بنفسي لأنّي شعرتُ أنّ الجو في الغرفة مضغوطٌ قليلاً.

فرمقني بإحدى نظراته المتشكّكة وقال: من الأفضل أن نبدأ العمل إذن. سأصطحبك أنا والسيِّد فيرغسون إلى الآلة في الأعلى.

- إذن من الأفضل أن أضع قبَّعتي على رأسي.

- لا داعي لذلك، فالآلة داخل المنزل.

- ماذا؟! هل تستخرج مسحوق تبييض الثِّياب داخل المنزل؟

- لا، لا. إنّه فقط المكان الذي نكبسه فيه فقط. دعنا من ذلك الآن، كل ما نريده منك أن تفحص الآلة وتخبرنا ما مشكلتها.

صعدنا إلى الدّور الأعلى معاً يتقدّمنا الكولونيل ومعه المصباح، ووراءه المدير السّمين، وأنا خلفهما.

كان المنزل القديم كالمتاهة لما يحويه من أروقةٍ وممّراتٍ كثيرةٍ متشابهةٍ، ودرجٍ دائري ضيِّق، و أبواب منخفضة عتباتها متآكلة نتيجةً قدمها. لم يكن هناك سجّاد ولا أثر لأي أثاث عدا الموجود في الطّابق السُّفلي، بينما كان طلاء الجدران قديماً جدّاً وقد تقشَّر وتسرَّبت الرُّطوبة لتظهر على شكل بقع خضراء غير صحيّة.

حاولتُ ألا أهتم بكل هذا لكن تحذير السّيدة لم يغب عن بالي رغم تجاهلي له، لذلك أصبحتُ أكثر حذراً من رفيقي. بدا فيرغسون شخصاً كئيباً، مملاً وصامتاً بشكلٍ كبيرٍ، لكنّي فهمتُ من القليل الذي تحدث به أنّه من الريف الانكليزي.

توقّف الكولونيل ستارك أخيراً أمام بابٍ منخفضٍ قام بفتحه ودخل أمامي إلى غرفةٍ مربّعةٍ وصغيرةٍ لم تكن تتّسع لنا نحن الثّلاثة معاً فبقي فيرغسون في الخارج. قال ستارك: نحن الآن داخل المكبس، وسيكون من المؤسف لو قام أحد بتشغيله الآن، فسقف هذه الغرفة الصّغيرة هو في الحقيقة الجزء الهابط من المكبس. وهو يهبط بقوّةٍ عدّة أطنان على هذه الأرضيّة المعدنيّة، وفي الخارج عدة أعمدة جانبيّة صغيرة من الماء هي التي تستقبل الضّغط لتنقله وتضغطه بالطّريقة التي تعرفها.

إنَّ الآلة تبدأ العمل بسهولة، لكنّها تتحرَّك بصعوبة بعد ذلك، كما أنّها فقدت بعض قوَّة ضغطها. هل يمكنك، لو سمحت، فحصها لكي تدلّنا على طريقة إصلاح الخلل فيها؟

أخذت المصباح من يده وفحصت الآلة. كانت آلة ضخمة للغاية وقادرة على توليد كميّةٍ هائلةٍ من الضّغط، لكن عندما خرجت وضغطت الرَّوافع التي تتحكَّم بها إلى الأسفل، عرفت فوراً من خلال صوت الأزيز أنّ هناك تسرُّباً بسيطاً فيها يسمح باندفاع الماء من إحدى الاسطوانات الجانبية. وأظهر الفحص أنّ أحد الأربطة المطاطيَّة التي كانت تُحيط بقمة عمود الدَّفع قد تقلَّص بحيث لم يعد يُغلَق بإحكام التّجويف الذي يوضع فيه،

وكان واضحاً أنَّ هذا هو سبب فقدان قوَّة الضَّغط.

أوضحت الأمر للرَّجلين اللَّذين استمعا إلى ملاحظاتي بحرصٍ شديدٍ، وسألا عدّة أسئلة عملية عن الطّريقة التي يجب أن يُصلحا بها الآلة.

وعندما أوضحت لهما الأمر عدت إلى غرفة الآلة وألقيت عليها نظرة لأرضي فضولي، ولم أكن بحاجة سوى للمحة بسيطة للآلة حتّى أدرك أن موضوع كبيض الثّياب ما هو إلا مجرّد كذبة كبيرة. فمن غير المنطقي أن نفترض أنّ مثل هذا المحرِّك الضّخم مخصّص لذلك الغرض البسيط. كانت الجدران من الخشب، أمّا الأرضيّة فقد كانت عبارة عن وعاد حديدي واسع، وعندما فحصته استطعت أن ألاحظ أنّه مغطى بقشرة من الرّواسب المعدنية، فانحنيت وأخذت أكشطها محاولاً معرفتها حين سمعتُ صيحة تعجب بالألمانية ورأيت وجه الكولونيل الشَّاحب ينظر إليّ من الأعلى وهو يسأل قائلا: ما تفعل هناك؟!

شعرتُ بالغضب لأنّه تمَّ خداعي بتلك القصة المختلقة عن مبيض الثّياب، فقلت: كنت أتأمّل مسحوق تبييض الملابس بإعجاب! أظن أنّه بإمكاني أن أقدّم لك نصيحة بشأن آلتك إذا ما عرفت الغرض الحقيقي الذي تُستخدم لأجله.

لكنّي سرعان ما ندمتُ على تسرُّعي بالبوح بما بداخلي ما إن نطقتُ كلماتي، فقد علت القسوة وجهه وقدحت عيناه الرّماديّة شرراً وقال: حسناً، سوف تعرف عن هذه الآلة كلّ شيء.

ثم خطا خطوةً إلى الوراء وخرج من الغرفة بسرعةٍ مغلقاً الباب خلفه بالمفتاح من الخارج. أسرع إلى الباب وأخذتُ أجذب المقبض إلا أنّه كان مغلقاً بإحكام فلم أتمكّن من فتحه أو حتّى التّأثير عليه ولو قليلاً رغم كلّ محاولاتي. بعد ذلك صرختُ: أيُّها الكولونيل، أخرجني من هنا.

بعد ذلك سمعتُ صوتاً جعل قلبي يقفز من الرُّعب إلى فمي، كان صوت صرير الرَّوافع وأزيز الأسطوانة المثقوبة، لقد قام بتشغيل المكبس!! كان المصباح لا يزال على الأرض حيث تركته عندما انحنيت لفحص الأرضية ، فرأيتُ على ضوئه السّقف وهو يتحرّكُ ببطءٍ نحو الأسفل بحركةٍ متقطّعةٍ، لكن بقوةٍ كبيرةٍ قادرةٍ، كما أعلم أنا أكثر من غيري، على سحقي وتحويلي في لحظةٍ إلى عجينةٍ لا شكل لها!



ارتميتُ على الباب وأخذتُ أطرق عليه وأصرخ متوسِّلاً كي يخرجوني من هناك وأخذتُ أشد على القفل بكل ما أوتيتُ من قوَّةٍ، لكن دون جدوى فقد تبدَّدت قواي دون فتح الباب، كما تبدَّد صوتي في ضجة محرِّك المكبس وحركة روافعه. وعندما أصبح السّقف على بعد قدم أو قدمين من رأسي فيما كنتُ واقفاً، شعرتُ كم هو سطحه صلب وقاسٍ. ثمَّ لمعت في رأسي فكرة الألم الذي سأمر به قبل أن أموت تحت ضغط هذا العملاق، فالألم سيعتمد على الوضع الذي سأكون فيه، فإذا استلقيتُ على وجهي سوف يهبط الثّقل على عمودي الفقري. اقشعرَّ بدني حين فكَّرتُ بالصّوت المريع الذي سينتج عن ذلك! قد يكون الوضع أسهل إذا استلقيتُ على ظهري، لكن هل أملك ما يكفي من الشجاعة ما يجعلني أواجه ذلك الظل الأسود القاتل وهو يقترب مني ببطء؟

كان السّقف يقترب مني أكثر فأكثر ولم أعد قادراً على الوقوف بشكل كامل وعندها وقعت عيناي على ما بعث الأمل في قلبي.

لقد أخبرتكم أنّ أرضية الغرفة من الحديد والجدران من الخشب، وبينما كنت أجول ببصري بسرعةٍ بحثاً عن

طوق نجاة. رأيت بنظرةٍ أخيرةٍ خيطاً دقيقاً من الضّوء الأصفر يدخل بين لوحي خشب، ثمَّ أخذتُ الفتحة التي يدخل منها الضَّوء تزداد اتّساعاً حين تمَّ دفع أحد ألواح الخشب إلى الخلف. للحظة لم أصدِّق أنَّ هناك حقاً مخرجاً ينقذني من الموت المُحقّق. وفي اللّحظة التّالية رميتُ بنفسي عبره، ورقدتُ وأنا في شبه غيبوبة. كان اللَّوح قد انغلق بعد خروجه عبر الفتحة التي شكّلها ليغلقها من جديد، إلا أنّي أدركتُ من صوت تحطّم المصباح وقرقعة اللّوحين المعدنيين أنني قد أفلتُ في اللّحظة الأخيرة.

عدتُ لرشدي عندما قام أحدهم بشدّي من معصمي، ووجدتُ نفسي راقداً على الأرض الصّخريّة للممر الضيِّق في المنزل، فيما انحنت امرأةٌ فوق راسي وأخذت تشدني بيدها اليسرى فيما تحمل شمعة باليد الأخرى. كانت المرأة نفس السيِّدة الطيِّبة التي رفضتُ الاستماع لتحذيرها، وصاحت بأنفاسٍ متقطِّعة: تعال، تعال! سوف يحضران إلى هنا بعد لحظةٍ عندما يكتشفان أنّك لستَ هناك. هيا، لا تُضيِّع هذا الوقت الثّمين، هيا!

هذه المرة أخذتُ بنصيحتها على الفور، فوقفتُ مترنِّحاً على قدمي، وركضتُ معها عبر الممر لنهبط بعد ذلك

الـدّرج الدّائـري الـذي قادنا إلى ممرٍ عريض، ومـا كدنا نصل إليـه حتّـى سـمعنا صوت أقـدام تجـري، وصوت شـخصين يصرخـان، وأحدهما يـرد على الآخر مـن الذي كنّـا فيه، ومن الطّابـق الـذي تحته. عندها توقّفتْ مُرشـدتي وأخـذتْ تتلفّت حولهـا كمـن لا يعـرف مـاذا يفعـل وقـد أُسـقط في يـده، ثـمّ فتحـتْ بابـاً يقود إلى غرفـة نوم، بـدا القمر يتلألأ مـن نافذتها بوضـوح وقالت: إنّهـا فرصتُـكَ الوحيدة... إنّهـا عالية، لكن قد تستطيع القفز.

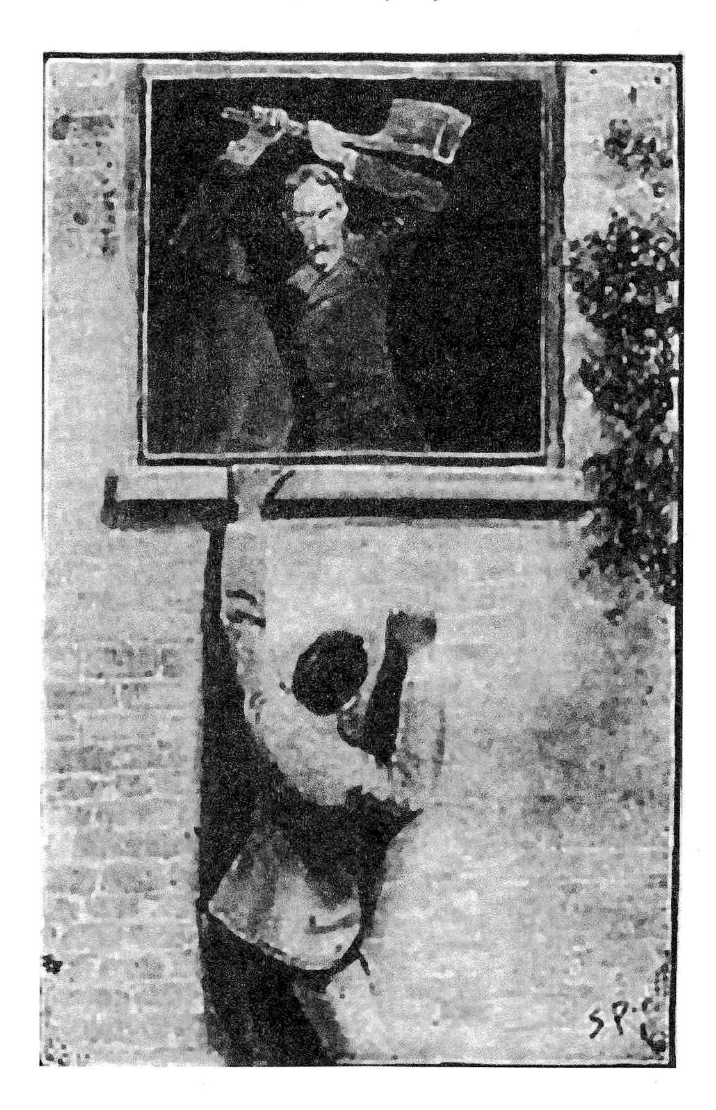
وفي نهايـة جملتهـا ومضَ ضـوء في نهاية الممـر، ورأيتُ ظل الكولونيـل سـتارك النّحيـل مسرعـاً إلى الأمـام وهـو يحمـل مصباحـاً بيـده وفي الأخـرى سـلاحاً يشـبه سـاطور الجـزّار، فأسرعـتُ عـبر غرفـة النّوم لأفتـح النّافـذة بسرعـةٍ وأنظر إلى الخـارج. آه كـم بـدت الحديقة هادئـةً وجميلةً في ضـوء القمر. لقـد توقّعـتُ أنَّ النّافـذة ترتفـع عـن الأرض بحـوالي العشرة أمتار، فتسـلّقتُ حافة النّافـذة بصعوبةٍ، لكنّي تـردّدتُ بالقفز حتّى أسـمع ما سـيدور بين منقذتي والشرير الـذي يلاحقني. كنـتُ سـأعود لمسـاعدتها لـو أسـاء إليهـا بـأي طريقـةٍ ومهما كان الثّمـن. ومـا كـادت هـذه الفكـرة تخطـر عـلى بـالي حتّـى وصـل هـو إلى عتبـة بـاب الغرفـة يحـاول أن يدخـل، لكنّهـا

منعَتْهُ وصاحت بالانكليزية قائلةً: فريتز! فريتز! تذكّر وعدك بعد المرّة الأخيرة، لقد وعدتني أنّ هذا لن يتكرّر مرّةً أخرى. لن يتكلّم، لن يتكلّم!

فصرخ قائلاً وهو يحاول التّملُّص منها: إنّكِ مجنونة يا أليس... سيكون في هذا دمارنا، دمارنا سيكون على يدكِ يا أليس. لقد رأى أكثر مما ينبغي. أقول لك دعيني أمر!

ثمّ دفعها جانباً وأسرع إلى النّافذة وسدّد لي ضربةً خاطِفةً بسلاحه الحاد فيما كنتُ أقفز بعد أن تعلّقتُ بحافة النّافذة، وتدلّيتُ إلى الأسفل وقد أصابني فشعرتُ بألمٍ غير مُحدّد، وارتخت قبضتي فسقطتُ على أرض الحديقة في الأسفل.

هزّني الاصطدام لكنّه لم يؤذني، فاستجمعت قواي ووقفت وأسرعت أركض بين الأشجار بأقصى ما لدي من سرعة، لأني أعلم أنّ الخطر على حياتي ما يزال قائماً. فجأة انتابني دوار وتعبتُ كثيراً فنظرت إلى يدي التي كانت تنبض بالألم ورأيت للمرة الأولى أنّ إبهامي قد قُطع وأنّ الجرح ينزف بغزارةٍ. حاولتُ ربط منديلي حوله لكنّي شعرتُ بطنينٍ في أُذني، وسقطتُ بعد لحظةٍ في غيبوبةٍ عميقة بين شجيرات الورد.



لم أعرف كم مضى من الوقت حين استيقظتُ، لكنّه كان حتماً وقتاً طويلاً جدّاً، فعندما استعدتُ وعيي كان القمر قد اختفى، وبدأتْ أشعة شمس الصّباح بالانتشار. كانت ملابسي مبلّلةً تماماً نتيجة قطرات النّدى وأكمام معطفي تتساقط منها نقاط الدّم لكثرة ما نزف جرحي عليها. لقد ساعدني الألم الحاد الذي كنتُ أشعر به على استرجاع تفاصيل ما حدث معي ليلة أمس بسرعةٍ، فقفزتُ واقفاً على قدمي وأنا أشعر أنّي ما زلت بخطر، لكنّ دهشتي كانت كبيرةٌ حين بدأتُ أنظر حولي فلم أستطع رؤية المنزل أو الحديقة. لقد كنتُ أرقد على زاوية سياجٍ قريبٍ من الشّارع العام، ورأيتُ في الأسفل على انحدارٍ بسيطٍ مبنى طويلاً علمتُ حين اقتربتُ منه أنّه مبنى المحطّة التي وصلت إليها مساءً البارحة. ولو لا الجرح المؤلم في يدي لكان من الممكن أن يكون كل ما حدث في تلك السّاعات المروّعة حُلماً سيّئاً أو مجرَّد كابوس؟

توجَّهتُ إلى المحطَّة وأنا أشعر بدوارٍ خفيف، وسألتُ عن موعد رحلة الصَّباح فعرفتُ أنَّ قطاراً سيتّجه إلى ريدنغ بعد أقل من ساعة. ووجدتُ أنَّ الحمّال الموجود

بالخدمة هو نفسه الذي كان هناك عند وصولي، فسألتهُ عمّا إذا كان قد سمع باسم الكولونيل ستارك، لكن كما توقّعتُ لم يكن قد سمع به من قبل. وحين سأَلتَهُ إن كان قد لاحظ العربة التي كانت تنتظرني في اللّيلة السّابقة، أجابني بأنّه لم يفعل. كما سألته أيضاً إن كان يعرف مركزاً قريباً للشرطة، فأجاب بأنَّ هناك واحداً على بُعد ثلاثة أميال.

كان مركز الشرطة بعيداً جدّاً بالنِّسبة لحالتي المزرية من التّعب والضّعف، فقرّرتُ أن أنتظر حتّى أعود إلى المدينة كي أروي ما حدث معي للشرطة. وحين وصلتُ كانت الساعة قد تجاوزت السّادسة بقليل، وهكذا ذهبتُ أولاً لأضمِّد جراحي، وكان الدّكتور واطسون لطيفاً بما يكفي بحيث أحضرني إلى هنا. وها أنا أضع هذه القضية بين يديك، وسأفعل كل ما تنصحني به.

جلسنا جميعاً بصمت لبعض الوقت بعد سماع تلك القصّة الغريبة، ثمّ قام شارلوك هولمز وسحب أحد الكتب الضّخمة المألوفة التي يحتفظ فيها بقصاصات من الصحف، ثم قال: ها هو إعلانٌ قد يهمك، وقد نُشر في كل الصّحف قبل عام تقريباً. اسمع ما جاء فيه: مفقودٌ غادر السيِّد جيرمي هايلنغ منزله في السّاعة العاشرة من

مساء التّاسع من أيلول، وهو مهندس ميكانيك هيدروليكي يبلغ ستّة وعشرون عاماً، ولم تُعرف عنه أي أخبار حتَّى الآن، وكان يرتدي... إلى آخره. ما رأيك؟ أظن أنَّ هذا يوضح ما حدث في المرَّة السّابقة التي أراد الكولونيل إصلاح آلته.

فصاح مريضي قائلاً: يا إلهي، هذا يوضِّح ما قالَته السَّيدة التي أنقذتني.

- بلا شك. من الواضح تماماً أنّ الكولونيل المزعوم رجلٌ باردٌ ومتهوِّر ومصمَّم على ألا يترك خلفه أي آثار تكشفه، مثل القراصنة الذين لا يتركون أي ناجين من السفن التي يستولون عليها. حسناً، كل دقيقة تمر الآن غالية جداً، لذلك سنتوجّه مباشرةً إلى إدارة شرطة سكوتلنديارد في خطوةٍ تمهيديّة للتّوجه إلى آيفورد.... إذا كنتَ تشعر بأنّك قادرٌ على ذلك.

وبعد حوالي ثلاث ساعات كنّا جميعاً في القطار المتّجه من ريدنغ إلى قرية بيركشاير الصّغيرة، وقد انضمَّ إلينا نحن الثّلاثة المفتِّش برادستريت من سكوتلنديارد، وشخصٌ آخر يرتدي ملابس بسيطة. كان برادستريت قد فتح إحدى خرائط المساحة المفصّلة للريف على مقعد أمامه، وكان مشغولاً برسم

دائرةً مُستخدماً الفرجار بحيث تكون آيفورد هي المركز وقال: ها هي الدّائرة التي رُسمَت بحيث يكون نصف قطرها عشرة أميال ومركزها القرية، المكان الذي نريده لا بد أن يكون قريباً من هذا الخط.

– لقد استغرقت الرِّحلة ساعة بالعربة وكانت تسير بسرعةٍ جيّدةٍ.

– وأنت تعتقد أنّهم أعادوك كل هذه المسافة فيما كنتَ فاقداً للوعي؟

– لا بد أنّ هذا ما فعلوه، فأنا أذكر بشكلٍ مُشوّشٍ أيضاً أنني حُملت وتمّ نقلي إلى مكانٍ ما.

فقلتُ: الأمر الذي لا أستطيع فهمه هو سبب إبقائهم على حياتك بعد أن وجدوك فاقداً للوعي في الحديقة! ربما رق قلب الشرير نتيجة توسلات المرأة.

– لا أظن أنّ هذا محتملٌ، فلم أر وجهاً أشدُ قسوةً من وجهه قط.

قال برادستريت: سرعان ما سيتّضح كل هذا. لقد رسمتُ الدّائرة، والآن أتمنّى أن أعرف في أي نقطةٍ يوجد أولئك الذين نبحث عنهم.

قال هولمز بهدوء: أظن أنّ بإمكاني الإشارة إلى ذلك المكان.

فصاح المفتّش قائلاً: حقاً؟! هل استنتجتُ شيئاً ما؟ هيا إذن، لنرَى من سيحزر ويتّفق بالرّأي معك. أنا أقول إنّ الموقع في الجنوب، لأنّ المنطقة أكثر عزلةً هناك.

قال مريضي: وأنا أقول في الشّرق.

قال الرّجل صاحب الملابس البسيطة: أمّا أنا فأقول إنّه في الغرب حيث توجد عدّة قُرى هادئة.

أمّا أنا فقلتُ: أظنُّه في الشّمال، فلا توجد تلالٌ هناك، وقد قال صديقنا إنّه لم يلاحظ صعود العربة على أيٍّ منها.

فصاح المفتِّش ضاحكاً: هيا. إنّ لكلِّ شخصٍ منا رأياً مختلفاً تماماً عن الآخر، وهكذا فقد جمعنا الاتّجاهات الأربع، فرأيُ من سترُجِّح يا هولمز؟

- أنتم جميعاً مُخطئون.

- ولكن لا يمكن أن نكون جميعنا على خطأ!

- بل ممكن.

ثمّ أشار بإصبعه إلى مركز الدّائرة قائلاً: هذا هو المكان الذي سنجدهم فيه.

فصاح هاثيرلي قائلاً: ولكن ماذا عن مسافة الاثني عشر ميلاً التي قطَعَتها العربة؟!

- لقد ابتعدت العربة ستة أميال ثمّ عادت أدراجها بمنتهى البساطة، فقد قلتَ بنفسك أنّ الحصان كان نشيطاً وجلده لامعاً عندما ركبتَ العربة، فكيف يكون بهذه الحال إذا كان قد قطع اثنتي عشرة ميلاً على طريق وعرة؟

قال المفتِّش وهو مستغرقٌ في تفكيرٍ عميق: فعلاً، إنّها خدعةٌ محتملةٌ، وبالطّبع فإنّ نشاط هذه العصابة معروفٌ تماماً.

فقال هولمز: بالطّبع، إنّها عصابةٌ لتزوير المال، وهم يستخدمون الآلة لصنع خليط المعدن الذي يستبدلون به العملة النّقديّة الفضيّة.

قال المفتِّش: لقد عرفنا بأمر هذه العصابة منذ بعض الوقت وتقّفينا أثرها إلى ريدنغ، لكنّنا لم نستطع الوصول إلى أبعد من تلك النقطة، فقد قاموا بإخفاء أثرهم بطريقةٍ ممتازةٍ تدلُّ على أنّهم خبراء في هذا المجال. ولكنّنا نلنا منهم الآن بفضل هذه الفرصة.

ولكنّ المفتش كان على خطأ مرّةً أخرى، فلم يكن مقدّراً لهؤلاء المجرمين أن يقعوا في قبضة العدالة.



فحين وصلنا إلى محطّة القطار في آيفورد، رأينا عموداً ضخماً من الدُّخان يتصاعد من خلف مجموعةٍ من الأشجار

في المنطقـة المجـاورة ويمتـدُّ فـوق الحقـول مثـل ريشـة طائـر عملاق، فسأل برادستريت قائلاً: هل هناك منزلٌ يحترق؟

أجاب مدير المحطة بالقول: نعم يا سيدي.

- متى شبّ الحريق؟

- سـمعت أنّـه بـدأ خـلال الليـل يـا سـيدي، وقـد انتشر حتّى التهم المبنى كله.

- ومن يملك هذا المنزل أو يقطن فيه؟

- إنّه منزل الدكتور بيشر.

فصاح المهندس قائلاً: هل الدكتور بيشر ألماني نحيلٌ جدّاً؟

فضحـك مديـر المحطـة بقـوّةٍ وهو يقـول: لا، يا سـيدي، فالدكتـور بيـشر إنكليـزي، وليـس هناك مـن هو أسـمن منه في القريـةِ كلِّهـا، لكـنَّ شـخصاً يقيـم عنـده وهـو مريـضٌ أجنبـي كـما فهمـت ويبـدو مـن شـكله أن تناولـه لمزيـدٍ مـن الطّعام لن يضره فهو فعلاً نحيل.

أسرعنـا جميعـاً باتّجـاه الحريـق قبـل أن ينهي مديـر المحطّة حديثـه، وحـين اقتربنـا رأينـا مبنـى كبـيراً جـداً والنّـار تخرج مـن كل نوافـذه وكان في الحديقـة الأماميّـة ثلاثـة إطفائيـين يحاولون عبثاً إخماد النّيران القويّة.

صاح هايثرلي بانفعالٍ شديدٍ: إنّه هو، فهذا هو الطّريق المعبّد بالحصى، وها هي أجمة الورد حيثُ رقدتُ، وتلك النّافذة هي التي قفزتُ منها.

قال هولمز: حسناً، أعتقد أنّك قد ثأرت منهم فلا شك أنّ مصباحك هو ما سبّب الحريق وأشعل جدران المكبس الخشبيّة وهم لم ينتبهوا له لأنّهم كانوا مشغولين بمطاردتك. والآن أرجو أن تنتبه بشدة وابحث عن أصدقاء الليلة الفائتة وسط الحشد، وإن كنتُ أخشى أنّهم أصبحوا على بعد مئات الأميال الآن.

وبالفعل فقد تحقّقت مخاوف هولمز، فلم يسمع أحدٌ قط منذ ذلك اليوم أي خبر عن الألماني الشرير أو الدّكتور بيشر أو السّيدة التي كانت معهما. وقد قابل أحد الفلاحين في وقتٍ مبكّرٍ من صباح ذلك اليوم عربة ضمنها عدّة أشخاص تحمل معهم بعض الصناديق الضّخمة وهي تغادر ريدنغ على وجه السرعة، وهناك اختفت آثار العصابة تماماً ولم يتمكّن حتّى هولمز من العثور على ما يقود إليهم.

كانت التّعديلات الغريبة في المنزل سبب حيرة رجال الإطفاء، وازدادت حيرتهم عندما اكتشفوا عند عتبة نافذة

إحدى غرف الطّابق الثّاني إبهاماً ليد بشريّة تمّ قطعه حديثاً! وعند غروب الشّمس تكلّلت جهودهم في إطفاء الحريق بالنجاح، لكنّ سقف المنزل انهار ودمّر المكان بشكلٍ تام بحيث لم يبقَ أي أثرٍ للآلة التي كلّفت مريضي إبهامه، إضافةً إلى معاناة كبيرة ومواجهة الموت بطريقةٍ مُقزِّزةٍ. كما تمّ إيجاد كميات كبيرة من معدن النّيكل والقصدير مخزّنةً في بناء منفصلٍ عن المنزل وملحقٌ به، وإن لم يتم العثور على أي عملات معدنية وهو الأمر الذي يوضِّح سبب أخذ العصابة لصناديق ضخمة معها في فرارها.

وكانت الطّريقة التي نُقل بها المهندس من الحديقة إلى البقعة التي استعاد فيها وعيه ستبقى لغزاً بدون حل إلى الأبد لو لا التّراب النّاعم الرّطب الذي دلّنا على قصة غاية في البساطة. فقد حمله شخصان، أحدهما له قدمان صغيرتان بشكلٍ ملحوظ بعكس الآخر الذي يملك قدمان كبيرتان جداً. وقد رجّحنا أنّ الآثار تعود إلى ذلك الانكليزي البدين الصّامت (وهو الذي كان أقل جرأةً أو أقل ميلاً للعنف والقتل من رفيقه على ما يبدو) قد ساعد المرأة في حمل المهندس الغائب عن الوعي بعيداً عن الخطر.

قال المهندس بحزن حين جلسنا في مقاعدنا لنعود إلى لندن: حسناً، لقد كانت مهمة رهيبةً بالنِّسبة لي، فقد خَسرتُ إبهام يدي إضافةً إلى خسارة خمسين جنيهاً كان المفروض أن أقبضها بعد انتهاء عملي. فماذا استفدت؟

فأجابه هولمز ضاحكاً: الخبرة! لقد ربحت خبرةً جيّدَة. ربما لا يكون لها قيمة الآن، لكنّها ستفيدك كثيراً، فما عليك إلا أن ترويها لتكسب سمعةً جيدةً طوال حياتك بأنّ صحبتك مع النّاس ممتازة.

• انتهى •